السنة القمرية

وشهورها

من المعلوم أن الأرض تدور حول الشمس وتتم دورتها في ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات وسبع وأربعين دقيقة، وان القمر يدور حول الأرض في ٣٥٤ يوماً وثماني ساعات ، فتكون السنة القمرية أقل من السنة الشمسية بعشرة أيام وواحد وعشرين ساعة وسطيًا .

لقد لاحظ العرب قبل الاسلام وهم يعيشون تحت سماء صافية لا تتخللها الغيوم طول السنة إلاّ في أيام الشتاء القليلة طلوع القمر وأفوله ، والتطورات التي تطرأ على شكله وعلى أوقات طلوعه وأفوله ، درسوا ذلك واعتبروه مقياساً للزمن عندهم ، ثم قسموا سنتهم اثني عشر شهراً قمريًا دون أن يروا حاجة لدرس أيام الشمس وأسابيعها وشهورها ودون أن يتنبهوا إلى فرق الأحد عشر يوماً من سنتي القمر والشمس . وظلّ هذا الخطأ قائماً على مرّ العصور الى ان انتقل العرب من عالم البداوة الى دنيا الحضارة وأخذوا يزرعون الأرض ويمارسون الاعمال التجارية . فأقاموا الأسواق في أماكن مختلفة لبيع منتوجاتهم وشراء ما يحتاجون من آلات وأدوات وملابس .

وقد نتج عن انصراف القوم الى الاعمال الزراعية والتجارية أن راجت عادة تعاطي الأوراق والصكوك التجارية فيما بينهم وتاريخ تلك الأوراق وحينئذٍ انتهوا الى ذلك الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية المتقدم ذكره . وكانت أهم سوق لهم تلك التي يقيمونها في (عكاظ) وهو مكان واقع بين مدينتي نخلة والطائف وموعدها من أول شهر ذي القعدة حتى العشرين منه. ثم تنتقل الحركة التجارية الى سوق (مَجَنَّة) بمر ظهران حيث تبقى قائمة حتى نهاية ذي القعدة ، وتأتي من بعدها سوق (مجاز) خلف جبل عرفات حتى اليوم الثامن من ذي الحجة .وفي التاسع منه وهو يوم التروية، يرحل التجار والحجاج الى جبل عرفات ليؤدوا فريضة الحج .

لقد كان العرب في أسواقهم هذه يبيعون ويشترون ، فاذا أقبل الماء وقفت الحركة التجارية احتمى في السفح الماء من تلك الشعاب ليستمعوا الى القصائد البليغة التي كان يلقيها عليهم شعراء العرب الذين كانوا يفدون من شتى الأنحاء ليتشرفوا بمحادثة قرائحهم . وهناك ينال المجلي والمبرز من يستحقه من تقريظ وإعجاب واحترام . ولقد خصوا أبلغ القصائد بالشرف الرفيع فعلقوها على جدران الكعبة بيت آلهتهم المقدس . وهكذا فان العرب وهم أبناء الصحراء موطن الحر الحي الفياض والخيال الواسع لم يقنعوا حتى حين تعرضهم لأعمالهم التجارية إقامة المحفلات الأدبية ليشنفوا آذانهم بسماع القصائد البليغة ويحتفلوا بالمبرزين من فحول شعرائهم ويكرموا الأدب الرفيع بإغداق النعم والجوائز الثمينة على الممتازين من بينهم .

وحينما كانت تلك الأسواق تقام في أوقاتها المعينة من السنة القمرية لاحظ ذوو الحل والعقد من العرب أن حالة الطقس كانت تختلف في مختلف المواسم فتكون تارة صيفاً وأخرى شتاء أو ربيعاً أو خريفاً . ولاحظوا أيضاً أسماء شهور السنة عندهم لا تتطابق دائماً على مسماها . فشهر ربيع مثلاً لم يعد يصادف فصل الربيع . ثم تبين لديهم أن كل ٣٣ سنة قمرية كانت تساوي ٣٢ سنة شمسية . ومنها أنهم توغلوا كثيراً في الشهور التجارية . فلقد رأوا من الضروري ملافاة هذا التقهقر من الزمن . وكان الحل بينهم أن يعود يترب وما جاورها — ومنهم قرية كما هي عند العرب — يتبعون طريقة خاصة كانوا تعلموها من الكلدانيين وهي إضافة بضعة أيام لتكمل سنة قمرية ليتمكنوا من ضبط وتحديد أيام الأعياد عندهم . ومنها عيد النصح الذي يعادف في يوم بدر كامل بعد أن تتساوى الليل والنهار في بدء فصل الربيع . وحين اطلع العرب على تلك الطريقة استحسنوها وأخذوا يمارسونها على أشكال مختلفة ، فتارة يضيفون شهراً واحداً الى سنتهم القمرية بعد كل ثلاث سنوات ، وأخرى سبعة أشهر لكل ١٩ سنة انقضت أو تسعة أشهر بعد مضي ٢٤ سنة قمرية . وهكذا أمكنهم أن يحولوا دون حلول أشهرهم بفكر تتوالى فيه الاختلافات الموسمية .

* * *

وعبر العرب عن هذه الاضافة بالنسيء أو الكبس كما قال بعض الملكيين . إلا أن ابن

هشام قال في سيرته حين بحث عن النَّسَّاء بأنهم ينسئون الشهور في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون آخر بدل شهر من أشهر الحل . وقد نزلت الآية الشريفة في هذا وهي (إنما النسيء زيادةٌ في الكفر يُضلُّ به الذين كفروا يُحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرّم الله الآية) . وقد فسر بعضهم هذه الآية فقال :

لقد كانت الأشهر الحرمة معروفة عند العرب فلما دعتهم الحاجة وهي هن الحروب فيما بينهم والقيام بالغارات الى احلال بعضها أرادوا أن يتأوّلوا وان يكتفوا بعدد تلك الأشهر دون التقيد بالأسماء فأحلوا أحد الأشهر تمشياً مع حاجتهم ثم حرموه في عام آخر حينما لم يروا هنالك من حاجة للتحليل .

وقد فسر آخرون النسيء بالكبس وهو بذل عناية خاصّة في اضافة عدد كاف من الأيام في آخر كل سنة قمرية ليكون هنالك ترتيب ثابت لا يتغير يجعل الأشهر القمرية متساوية مع حالة الطقس في الأشهر الشمسية .

* * *

ولكل شهر من الأشهر العربية اسمان مختلفان الأول منهما وضعه العرب العاربة . والثاني استعمله العرب المستعربة أما أشهر العرب العاربة فهي :

مؤتمر ، ناجر ، حيوان أو بُصان ، رُتَّى ، إيِّده ، الأصم ، عادل ، ناطل ، واغل ، وَرنَة ، بُرَك . واليك الآن أشهر العرب المستعربة :

المحرم ، صفر ، الربيعان ، الجماديان ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذي القعدة ، ذي الحجة .

وقد قيل إنما وضع العرب هذه الأسماء لاتفاق حالات كانت وقعت في كل شهر فسمي الشهر بها عند ابتداء الوضع . فسموا المحرّم محرماً لأنهم كانوا أغاروا فيه فلم ينجحوا فحرموا القتال فيه وسمّوه محرّماً ، وسمّوا صفراً ليصفر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم الى الغارات . وقيل لأنهم كانوا يغيرون على (الصَّفَريّة) وهي بلاد في جزيرتهم ، وشهرا ربيع لأنهم كانوا يخصبون فيهما بما أصابوا في صفر . والربيع عندهم هو الخصب . والجماديان من

جمد الماء لأن الوقت الذي مُنيا فيه بهذه التسمية كان الماء جامداً فيه لبرده . ورجب لتعظيمهم له . والترجيب هو التعظيم . وقيل لأنه وسط السنة فهو مشتق من الرواجب وهي أنامل الأصبع الوسطى . وقيل أن العود رجب النبات فيه أي أخرجه فسمي بذلك ، وكذلك تشعب العود في الشهر الذي يليه سمي شعبان وقيل سمي بذلك لتشعبهم فيه للغارات . وسمي رمضان أي شهر الحر مشتق من الرمضاء ، وشوال من شالت الإبل أذنابها اذا حالت ، أو من شال يشول اذا ارتفع . وذو القعدة لقعودهم فيه عن القتال ، إذ هو من الأشهر الحرم وذو الحجة لأن الحج اتفق فيه فسمي به .

* * *

واتخذ المسلمون منذ العهد العمري الهجرة النبوية مبدأ لتاريخهم وقد ذكر الطبري في الجزء الثاني من تاريخه كيفية ذلك فقال : « كان رفع الى عمر صك محله في شعبان . فقال أي شعبان ؟ هل هو شهر السنة الآتية أو الذي نحن فيه . ثم قال لاصحاب رسول الله : ضعوا للناس شيئاً يعرفونه : فقال بعضهم : اكتبوا على تاريخ الروم فقيل انهم يكتبون من عهد ذي القرنين وهذا يطول . وقال بعضهم : اكتبوا على تاريخ الفرس . فقيل أن الفرس كلما قام ملك طرح ما كان قبله من السنين . فأجمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله بالمدينة فوجدوه عشر سنين فكتب التاريخ من هجرة رسول الله » .

هذا ما ذكره الطبري عن مبدء التاريخ الهجري . والعرب المسلمون شعروا بحاجة ماسة الى وضع مبدء عام لتاريخ أوقاتهم وصكاتيبهم الرسمية وسجلات وقوطاتهم الحربية حينما انتشروا في بلاد الشرق الأدنى ، وأخذوا يحكمون أمماً لها مدنياتها وتقاليدها وتواريخها . وقبل هذه الفتوحات لم يكونوا يشعرون بتلك الحاجة نظراً لما كان يسود بينهم من البساطة في حياتهم الاجتماعية . ويقول الطبري انهم لم يباشروا بتاريخ وقائعهم وضبط حوادثهم قبل الاسلام الا لمدة لا تتجاوز الجيل الواحد . ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن المسلمون قد بلغوا من التوسع الاجتماعي ما يجعلهم يشعرون بقيمة التأريخ الرسمي . وكان نظام الحكم النبوي عندهم بسيطاً ، ولا يحتاج الى اتخاذ المالفات والى حفظ المستندات وال

ترقيم المكاتيب كما هي الحالة في الحكومات التي تكونت فيما بعد. إذ أن وظائف الحكومة النبوية كانت قليلة جداً. والأوامر النبوية كانت تعطى شفوياً فتنفذ حالاً. وقد ظلت أمور الدولة الفتية سائرة على هذا المنوال الى أن انتشر العرب في سوريا ومصر والعراق حيث حلوا محل الأعاجم فشعروا حينئذ بضرورة التاريخ حينما باشروا بجمع الضرائب وبتوزيع القوائم وتخميس الرواتب للمجاهدين. وبما انهم حديثو العهد بتلك الأمور المعقدة التي كانت تحتاج الى خبرة ومراس، فانهم رأوا من المناسب أن يستبقوا موظفي تلك البلاد القدماء في مراكزهم ليقوموا بأعمال التسجيل والضبط والتوزيع وقيد وارد الدولة ونفقاتها.

وانصرف أولئك الموظفون الى أداء واجباتهم بالطرق التي كانوا ألفوها فاستمروا على تأريخ أوراقهم وسجلاتهم ومكاتيبهم بتواريخ العهد البائد. واستخدم موظفو العراق التقويم الساساني وموظفو سوريا ومصر التقويم البيزنطي. وهكذا أخذت الأوراق الرسمية ترد الى العاصمة الاسلامية حاملة تواريخ مختلفة لا تتلاءم مع تقاليد العرب وعاداتهم. وهذا ما حمل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على اتخاذ مبدء للتاريخ يتناسب مع تقاليد العرب المسلمين ويدفع حاجتهم ويطمئن ميولهم القومية والدينية.

* * *

لقد كان من المعقول حين فكر عمر باتخاذ مبدء للتاريخ أن يقترح عليه اختيار اليوم الذي ولد فيه سيد الأنبياء أو اليوم الذي بعث فيه لهداية الناس الى ديانة الحق والعدل نظراً لما لهذين اليومين من المكانة الممتازة في حياة بعض الناشئة المسلمة. إلاّ أن القوم اختاروا يوم الهجرة مبدأ لتقويمهم الجديد بدلاً من يومي المولد أو البعثة ويظهر أن هذا الاختيار والترجيح كان بناء على اختلاف المسلمين حينئذ في تعيين التواريخ الصحيحة لهذين اليومين العظيمين.

فلقد اختلف المؤرخون في العام الذي ولد فيه النبي فأكثرهم على انه في عام الفيل (٥٧٠ م). ويقول ابن عباس: إنه ولد يوم الفيل. ويقول آخرون إنه ولد قبل الفيل

بخمس عشرة سنة . ويذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد الفيل بأيام وبأشهر وبسنين يقدّرونها فوق ثلاثين سنة ويقدرها فوق السبعين .

واختلف المؤرخون كذلك في الشهر الذي ولد فيه وإن كانت كثرتهم على أنه ولد في شهر ربيع الأول، وقيل ولد في المحرم ، وقيل ولد في صفر، والبعض يرجح رجباً على حين يرجح آخرون شهر رمضان

كذلك اختلفوا في اليوم من الشهر الذي ولد فيه فقيل ولد لليلتين خلتا من ربيع الأول وقيل لثماني ليال ، وقيل لتسع . والجمهور على أنه ولد في ثاني عشر ربيع الأول . وهو قول ابن اسحاق وغيره وكذلك اختلف في الوقت الذي ولد فيه أكان نهاراً أم ليلاً . كما اختلف في مكان ولادته بمكة .

والمرجح أن الولادة كانت في ٢٠ أغسطوس سنة ٥٧٠ أي عام الفيل وكانت الولادة في دار جده عبد المطلب بمكة .

* * *

فما تقدم يفهم أنه كان يتعذر على عمر وأصحابه الاتفاق على يوم الولادة ، كما أنه تعذرت أيضاً على ما يظهر معرفة اليوم الذي بُعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم . سنة ٢٢ لقد جاء في الجزء الثاني صفحة ٢٥١ من تاريخ الطبراني ما يأتي :

أنزلت عليه النبوّة وهو ابن اربعين سنة فقُرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين كان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قُرن بنبوته جبريل عليه السلام فنزل القرآن على لسانه عشر سنين بمكة ، وعشر سنين بالمدينة ، فلعل الذين قالوا : كان مقامه بمكة بعد الوحي عشراً عدّوا مقامه بها من حين أتاه جبريل بالوحي . وعدّ الذين قالوا : كان مقامه ثلاث عشرة سنة من أول الوقت الذي استنبيء فيه . وكان اسرافيل المقرون به وهي السنون الثلاث التي لم يكن أُمِرَ فيها بإظهار الدعوة .

واجمع المسلمون وعلى رأسهم الخليفة الثاني عمر على اعتبار الهجرة النبوية مبدأ للتقويم الاسلامي الجديد . كيف لا ، والهجرة قصة من أروع ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والايمان . لقد كان النبي هاجر الى يثرب حتى يتمكن من تبليغ رسالة التوحيد

والهداية ، تلك الرسالة التي حاربها أهل مكة من يوم بعثته الى يوم هجرته أهول حرب فهو لم يفكر حين هاجر في مال أو جاه أو رتبة أو تجارة إنما كان همه نشر رسالته وتوفير الطمأنينة لمن يتبعون تلك الرسالة ، وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم وصلاتهم . لقد كانت مكة ضيقة جدًّا بالنسبة لعظمة الرسالة . وكان القرشيون حجر عثرة في سبيل انتشارها واقتطاف ثمارها اليانعة لخير الانسانية وسلامة البشرية من ضلال الوثنية وفوضى البداوة الجاهلة . فلما وقعت الهجرة اتسع أمام صاحب الرسالة مجال العمل فتضاعفت الجهود وتضافر الاخوة في سبيل الله وفي سبيل العقيدة والايمان فلم يمض على ذلك اليوم — يوم الهجرة المبارك — عامان حتى دانت سورات الا وكان جيش التوحيد يتوج جهود نبيه ، ويحتل عاصمة قريش ويقيم فيها عرشًا شعاره الايمان والجهاد في سبيل الحق والعمل الصالح في انقاذ المظلوم من الظالم .

هذا هو يوم الهجرة الذي اتخذه عمر بن الخطاب وعصبته المجاهدة المؤمنة مبدأ للتقويم الاسلامي . وهو يوم معروف التاريخ لم يشك فيه أحد . ولقد قال الطبري في تاريخه عن تقرير هذا المبدء ما يلي :

(قدم النبي (ص) يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، فاذا كان الأمر في تأريخ المسلمين كالذي وضعت ، فانه وإن كان من الهجرة ، فان ابتداءهم إياه قبل مقدم النبي المدينة بشهرين وإذا هي لاثني عشرة وذلك أن أول السنة محرم . وكان قدوم النبي المدينة بعد مضي ما ذكرت من السنة ولم يؤرخ التاريخ من يوم قدومه ، بل من أول تلك السنة) .

ولقد رأى أحدهم أن يحقق اليوم الذي هاجر فيه النبي بحسب التقويم الشمسي فقام بعملية حسابية طويلة لا محل لذكرها . ثم وجد أن قدوم النبي (ص) هاجر الى المدينة كان يوم الاثنين الواقع في ١٦ تموز سنة ٦٢٢ الميلادية .

يافا — فلسطين

رفيق التميمي

خريج السربون — وجامعة استانبول